مجلة
اللغة العربية وآدابها
المجلد8/ العدد 2/ ديسمبر2020. ص 275- 294

سيميائية اللون في الشعر الفلسطيني ما بعد أوسلو

Semiotics of color in Palestinian poetry after Oslo

د. عبلة سلمان ثابت *

تاريخ الإرسال: 2020/09/30	تاريخ القبول:2020/10/17	تاريخ النشر:2020/12/30

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى الوقوف على سيميائية اللون في الشعر الفلسطيني بعد اتفاقية أوسلو، وكيف أفاد منها الشعراء، فبرزت في كثير من قصائدهم، حيث تشابكت الأحداث وتولدت مستجدات لم تكن موجودة من قبل، فغدا التعبير الرمزي سمة الكثير من الشعراء، كانت الألوان في كثير من الأحيان أبرز أدواته، فانعكست دلالاته النفسية عما يدور في خلدهم، فجاءت متماهية مع الحدث بصورة إيحائية ذات دلالة عميقة، تحتاج من القارئ أن يسبر غورها متفحصًا. وقد اقتضى البحث استقراء وصفيا لمجموعة من القصائد الشعرية بعد اتفاقية أوسلو؛ لاستخلاص جوانب الدلالة اللونية فيها، وما تحمله وراءها من معانٍ عميقة.

الكلمات المفتاحية: (سيميائية، اللون، الشعر، الفلسطيني، أوسلو)

Abstract:

This research aimed at identifying the semiotics of colors in the Palestinian poetry after the Oslo Accords, and how poets made use of them. The semiotics were explicit in most of their poems, whereas events intertwined, and new developments, which had never appeared before, came into being. Then the symbolic expression became a feature of several poets. They were the most dominant and reflected what went in their minds and the way of thinking. Such semiotics reflected the action, which had deep indications accompanied by strong connotations. This required that reader

المؤلف المرسل: عبلة سلمان ثابت ، as.thabet@alaqsa.edu.ps

* أستاذ الأدب والنقد المساعد بجامعة الأقصى- جامعة الأقصى- غزة- فلسطين- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- قسم اللغة العربية. **Email: as.thabet@alaqsa.edu.ps**

should examine them carefully. The research used the descriptive method for a many of the poems after the Oslo Accords. To determine the Colorimetric properties, and explored what deep meanings they have.

***Key words**: (semiotics, color, poetry, Palestinian, Oslo)* ❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊

1- مقدّمة:

اللون قديم قدم الإنسان، وقد تنوعت مدلولاته عند الشعوب التى اتخذت من الألوان رموزاً سياسية لكيانها، مثل عَلم الدولة، أو قد يشير إلى دلالات دينية، عاطفية، اجتماعية ... إلخ.

فالأمويون -مثلًا- اتخذوا من اللون الأبيض شعاراً لهم ولدولتهم، فقد كان لهذا اللون دلالة نفسية، كذلك العباسيون كان شعارهم اللون الأسود، وكذلك العلويون كان شعارهم اللون الأخضر[1].

فقد كان لكل لون دلالاته النفسية عند هذه الشعوب وكان جزءاً لصيقاً من ثقافاتهم، وكان من طقوس الإنسان البدائي أن يلون جسده بالألوان في طقس من طقوس العبادة والصلاة، كذلك القبائل تضع ألوية بشعارات ملونة في أوقات الحرب وأوقات السلم.

فاللون يؤدي دوراً مهماً في إدراكنا للعالم المحيط، وكلما ازداد وعي الإنسان بما حوله ارتقت مداركه، حيث تتحد علاقتنا بالعالم من خلال ما نراه ونكسبه دلالة وقيمة من خلال لونه.

وقد تنبه الإنسان الأول للفروقات والتباينات بين الألوان، ففرق بين لون النبات- على سبيل التمثيل – في حالته الخضراء عنها في حالة كونه أصفر فالمعنى يختلف. وكذلك اختلاف اللون الأسود عن الأبيض في دلالته على الليالي وتأثيراتها النفسية وما تحمله من معانٍ تختزل كثيرًا من العبارات التفصيلية.

1. اللون: معناه اللغوي ومدلوله النفسي

أما على المستوى اللغوي فقد امتلأت كتب اللغة والمعاجم تعريفات وتفصيلات مهمة للون، تدل على إدراك العرب للون ودلالاته اللفظية، فقد جاء في لسان العرب "اللون: هيئةٌ كالسواد والحمرة... ولون كل شيء؛ ما فصل بينه وبين غيره، والجمع ألوان .والألوان: الضروب .واللون .النوع"[2]

***ISSN:** 2352-9830* ***EISSN:** 2600-6898*

ويذكر ابن سيده في المخصص: "اللون ما فصل بينه وبين غيره، والجمع ألوان، وقد تلون ولونته" [3]، وكثيرةٌ هي الكتب والمصنفات اللغوية التي أفردت بحوثاً بين دفتيها لدراسة الألوان، مثل كتاب الخيل لأبي معمر بن المثنى الذي يُعدّ من أقدم تلك الكتب، وكتاب "العلل" لمؤلفه بلينوس الحكيم، وقد ترجم من اليونانية إلى العربية 200.[4]

كما أولى الكتّاب قديماً عناية كبيرة بدراسة الألوان وطبيعتها، منهم المسعودي صاحب كتاب "مروج الذهب" فهو من أوائل الكتاب الذين كتبوا في هذا الموضوع، وقد قسم كتابه إلى ثلاثة أقسام تتناول الموضوع من زوايا ثلاث [5]:

1. دراسة مفهوم "اللون" دراسة صرفية اشتقاقية .
2. الوقوف على دلالة اللون.
3. تأثير المكان في اللون .

وبالتالي ابتعد المسعودي في كتابه عن الدراسة السطحية؛ لأنه درس "اللون" دراسة دلالية كما يتضح من القسمين الأخيرين للكتاب.

ودرس الموضوع دراسة تاريخية في حياة الأمم السابقة، وتوقف عند دراسة الألوان الأساسية، وهي: الأسود والأبيض والأحمر والأصفر والأخضر، ولون السماء "الأزرق" [6]

وتعمق المسعودي في دراسة اللون عندما ربط اللون بالحالة النفسية، وذلك عند حديثه عن مدى ارتباط اللون الأحمر بالحرب، لكنه ارتبط عند النساء بالبهجة، وكان اللون المفضل لديهن في حالة الزينة، وكذلك اللون الأسود الذي يُشعر الرائي بالانقباض، وهذا يرجعه للتباين بين نور البصر ولون السواد[7]

لقد كان موضوع "اللون" حقلاً خصباً للدراسين في كافة المجالات منذ القدم، وتوقفوا عند مدى تأثيره النفسي في البشر. والواقع يشهد أن استجابة النفس للون تختلف من شخص لآخر، فيما يبدو محبباً وجاذباً لشخص، يبدو لآخر غير جاذب، وهذا يؤكد الارتباط بين اللون والمخزون التاريخي للفرد، كظروف النشأة والتربية والأحداث التي مرَ بها وذكرياته المخزنة، ومستواه الاجتماعي والثقافي للفرد والمجتمع. فالنفس غامضة، وبالتالي الاستجابة مختلفة من شخص لآخر.

فالألوان تتعدي في دلالتها نطاقها الوضعي فهي "تمنح الحياة والوجود قيمة لا يمكن إغفالها، فهل نتخيل أنفسنا نرى لوناً واحداً؟ هل نشعر بلذة الجمال لو اختفت الألوان من

الأرض، وأصبحت ترى بلا ألوان؟ عالماً مخيفاً يبدو لك كالصحراء الممتدة أطرافها بلا ماء أو شجر أو ظل أو نهاية؟ إن هذا التخيل يدفع النفس إلى النفور والملل فلا حياة بلا لون"[8]

لقد شغل موضوع دراسة اللون بال الفلاسفة والعلماء منذ " أرسطو" إلى "نيوتن"، فقدموا دراسات حول مكونات "قوس قزح" بألوانه: البنفسجي، الأحمر، البرتقالي، الأصفر، الأخضر، الأزرق، النيلي، وتوقفوا عند تأثيراتها الفيزيائية والكيميائية.

فالفيلسوف الهولندي " اسبينوزا" 1632-1677 " له بحث علمي عن قوس قزح والطيف الشمسي الذي حلله إسحق نيوتن بالتفصيل فيما بعد"[9]

2. اللون في الشعر

إن دلالة الألوان عند العرب القدماء عميقة الجذور، فقد اهتم الشعراء الجاهليون اهتماماً كبيراً باللون، فجعلوا الأبيض للجمال والنقاوة والسلام، والأصفر للإرادة والمجد والثروة، والأحمر للسعادة والفرح، والأسود للهدم والمقاومة والعنف، والأخضر للبعث والنهضة والتجديد، وهكذا تغنوا بالعشب الأخضر والأعين المحمرة، والرماح السود، والسبيك الصفر، أو ازدادوا فوصفوا الفرس بالكميت "يجتمع فيه اللونان الأسود والأحمر" أو بالخدارية الضاربة إلى السواد [10]

وتوظيف الشعراء الجاهليين لدلالات الألوان التي لا تخلو قصيدة من ذكرها لهو دليل على امتلاكهم "قدرة عجيبة في أماكن استعمالها ، وإحساس غريب في المواضع التي يمكن أن تستخدم فيها، ولا بد أن يدل هذا الاستخدام أو الاستعمال على إدراك حسي لخاصية هذه الألوان، وتفهُّم عميق للدلالات التي تحملها في خطوطها الباهتة أو العميقة، وظلالها الشاحبة أو المتداخلة"[11]. ولعل النصوص الشعرية في العصر الجاهلي كانت مليئة بالدلالات اللونية على الرغم من افتقار الصحراء لتلك الألوان .

وقد دأب الشعراء منذ جاهليتهم على قرن اللون بأبعاده الدلالية، فأخذت القصائد تعج بالألوان، وقد وضّح عبد الحميد إبراهيم في كتابه قاموس الألوان عند العرب ذلك الثراء اللفظي الذي عرفة العرب في مجال اللون، وأثبت أن تصور العرب الأول للألوان يختلف عما هو شائع لدى المعاصرين، فربما دلّت الصفرة والحمرة على السواد، وذلك من خلال طرحه لسياقات تعبيرية مختلفة ومتباينة، وأثبت في قاموسه أن العرب لم تقتصر تعابيرهم الدلالية على ألفاظ اللون في ضوء عدد محدود لا يتحاوز عدد أصابع اليد الواحدة، بل

تجاوزت ألفاظهم ذلك لتشمل الألفاظ الدالة على الألوان ما يزيد على أربعمئة وتسعة وثمانين لوناً من الألوان الشائعة، وهذا في مجمله ليؤكد تلك النظرة الثاقبة للعربي القديم حول اللون، مما يعكس ثراء هذه اللغة، كما تنبه العرب لدرجات اللون الواحد من ناحية أخرى[12]

3. القصيدة الحديثة والألوان

إن القصيدة الحديثة امتلأت بالألفاظ اللونية وأضحت كاللوحة وبقي على المتلقي فك شفراتها الدلالية. فاللون هو خبرة سيكولوجية إدراكية قائمة على أساس فيزيولوجي، وهو موضوع معقد، وهو "جزء مهم من خبرتنا الإدراكية الطبيعية للعالم المرئي، واللون لا يؤثر في قدرتنا على التمييز بين الأشياء فقط، بل ويغير من مزاجنا وأحاسيسنا ويؤثر في تفضيلاتنا وخبراتنا الجمالية بشكل يفوق تأثير أي بعد آخر يعتمد على حاسة البصر أو أية حاسة أخرى" [13]

كما أصبح للون لغة تعبيرية وقيم فنية جمالية عالية، فإذا كانت دلالة النص الأدبي ترتكز على عدة عناصر نصية منها: اللفظ، والإيقاع، والأسلوب، فإن اللون يأتي ليكمل هذه الدلالة النصية. وفي ذلك يقول عبد العزيز المقالح: "إن دفء اللون كدفء الإيقاع، كدفء المعنى، كلها تخلق في العمل الأدبي طاقة خاصة، وتؤسس صورة جديدة، ذات مدلولات متغيرة تصبها في قالب جديد"[14]

ولعل الشاعر يمتلك حاسة بصرية وإحساساً تجعلانه يميز بين دلالات الألوان، لأنه يكسبها شعوره الخاص، وهو في اختياره لهذه الألوان يشعر بحالة شعورية ووجدانية خاصة، وبالتالي قد يخالف ما هو شائع فيما تعارف عليه؛ لأنه يتعامل مع لغة ذات إيحاء ودلالة.

وهذا يتوقف على الطبيعة الانفعالية التي يمر بها الشاعر، ليصبح اللون أداه تعبيرية مهمة يستخدمها الشاعر لإبراز خلجات النفس البشرية .

فاللون ليس ظاهرة جمالية فحسب، بل أصبح ذا بعد نفسي وانفعالي فهو" رمز لشعور أو انفعال، إنه الشعور الذي نعييه عندما نعي هذا اللون ونتأمله، ويصبح موضوعاً لتأملنا الجمالي"[15]

فالألوان هي " أفكار ومشاعر تمدنا بها الطبيعة لتفسر أحاسيسنا وتجسد عقولنا أو تصورها"[16]

فالشاعر كالرسام يستعين بالألوان، وكأنه يدرك خفايا هذه الألوان ودلالاتها وعلاقتها بالإنسان, وفي هذا يقول د. عز الدين إسماعيل في كتابه الشعر العربي المعاصر: "إن ألوان الأشياء وأشكالها هي المظاهر الحسية التي تحدث توتراً في الأعصاب وحركة في المشاعر. إنها مثيرات حسية يتفاوت تأثيرها في الناس، لكن المعروف أن الشاعر – كالطفل - يحب هذه الألوان والأشكال ، ويحب اللعب بها، غير أنه ليس لعباً لمجرد اللعب، وإنما هو لعب تدفع إليه الحاجة إلى استكشاف الصورة أولاً، ثم إثارة القارئ أو المتلقي ثانياً. فالشعر إذن ينبت ويترعرع في أحضان الأشكال والألوان، سواء أكانت منظورة أو مستحضرة في الذهن. وهو بالنسبة للقارئ وسيلة لاستحضار هذه الأشكال والألوان في نسق خاص. إنه تصورات تستمتع الحواس باستحضارها، وإلا كانت شيئاً مملاً " [17]

فاللون له تأثيره السحري الخاص في عالم الشعر، الأمر الذي دفع شعراءنا الفلسطينيين ما بعد أوسلو إلى توظيف هذه الدلالة اللونية الثابتة والمتغيرة في لوحاتهم الفنية، واستثمار الطاقات الفنية للون في أشعارهم .

4. أقسام الألوان

تنقسم الألوان إلى ستة أقسام رئيسة هي الأسود، والأبيض، والأحمر، والأخضر، والأصفر، و الأزرق، وبقية الألوان تنضوي تحتها، فالكميت مثلاً ما كان لونه بين الأحمر والأسود من الخيل والإبل، لو غلبت عليه الحمرة يلحق بالأحمر[18]

وفي مقدمة الألوان شهرة الأبيض والأسود، وهما لونان متضادان مرتبطان بالليل والنهار، الظلمة والنور، الخير والشر، ويليهما مكانة واستعمالاً الأحمر، فهو من أوضح الألوان وأخصبها دلالة لارتباطه بالدم، وعلاقته بالقرابين والحروب والتضحية والبذل، يليه اللون الأصفر، ويعكس حالات متعددة وله انعكاسات متباينة بين الجفاف والشحوب والمرض، وفي حالة أخرى يرتبط بالتجدد؛ لأنه لون الشمس، رمز التجدد.

فالأخضر لون الخصوبة والنبات والحياة، أما اللون الأزرق فهو الأقل شيوعاً في الموروث الإنساني ولاسيما في الموروث الشعري الجاهلي ويشير دوماً إلى السماء والصفاء.[19]

وقد برزت الألوان في الشعر الفلسطيني بكل وضوح، حيث غدت جزءًا من سيميائية إيحائية، تحمل في طياتها دلالات معبرة، اختزلت المسافات والعبارات، فجاءت منسابة بين

ثنايا النصوص الشعرية، وكانت محطات مضيئة توقَّف عندها القرّاء والنقاد والمحللون طويلًا فاستلوا منها الكثير من المعاني المختبئة والكنوز الدفينة.

وإذ نحاول في هذه البحث الوقوف عند بعضها متتبعين ما ورد في أشعارهم بعد اتفاقية أوسلو، حيث أخذت أبعادًا نفسية متعددة، نجتهد في الكشف عنها وإبراز مكنوناتها.

لقد ألقت انتفاضة الأقصى المباركة بظلالها على الفلسطينيين كباراً وصغاراً، لما مارسه الاحتلال الإسرائيلي من صنوف البطش والقتل والتنكيل، وهذا ما ظهر جلياً عند إيهاب بسيسو عندما رسم صورة للطفل الفلسطيني الذي يحاول الفرار من الموت بقوله:[20]

طفلٌ يركض فوق صدري
خوفاً من عواء البارود..
يحاول الخلاص من وجه القاتل.. والقذيفة.
يحاول الخلاص من قميض أحمر.
كي يعود إلى حضن أمه يغتسل بالحكايا
صراخٌ يعبر صدري.. يشق المدى المفتوح على الرصاص
طفل يتشكل كالفراش
يغادر صدري.. بعيداً يركض عن الدخان
كي يكتب اسمه.. بين كفي قمر.

لقد أضفى اللون على النص أبعاداً جمالية، أعطته قيمة فنية عالية، فقد استطاع الشاعر أن يوظف بعض الألوان مع الرمز، ويحملها دلالات متنوعة، فالشاعر عندما تحدث عن الطفل الفلسطيني أكد أن الموت وإن اختلفت مسمياته فالسبب القدري واحد، مما يعانيه براءة تلك الأطفال عندما تتوجه لهم قذيفة أو رصاص الاحتلال، فهو حينئذ لا يجد إلا لون صدر قلب أمه الأبيض الذي يمثل الغرفة الآمنة والمدرعة بزبر وحديد، والتي لا يستطيع أحد أن يأخذ من أحشائها أبناءها.

وبالتالي جاءت تلك المقطوعة مليئة بالألوان، وإن كان بغير لفظها، مثل لون البارود الأسود القاتم، الذي لايمس سطح شفاف نقي إلا وجعله قاتماً بالموت والخوف، متبعثراً بدمار أطرافه من كل الجهات.

بالإضافة إلى اللون الأحمر الذي عادة ما ارتبط في عصرنا المعاصر بالدماء المترامية دون سبب، وإن كنا لا نخفي أو نعمم تشويه صورة جماله المتمثل في الطبيعة الوردية.

فجاء اللون الأحمر مرتبطاً بدلالة الشيطان المرعب، الذي يطارد ويوخز طفل لايدرك من نخزه ولما نخزه وثقب هذا الجسد البريء.

حتى يستيقظ على صوت الأرض التي تناديه معلناً كفراشة بين رصاصتين أن الأمل مازال موجوداً في التخلص من الاحتلال، مؤمناً بعدالة قضيته.

إن النص الشعري هو الذي يعطي اللون خصوصية معينة، فهو جزء من نسيج النص، ويأتي استجابة طبيعية لرؤيته، وهذا ما وجدناه في مشهد آخر عند بسيسو عندما أهمل قاصداً الدلالة الأصلية للون الأحمر، وقدم دلالة جديدة اتفقت مع رؤية النص، حيث يقول:[21]

رأيت يد لم تزل معلقة بمقبض الباب
من كان يقول لذلك الجسد لا تفتح الباب
فلك ميعاد مع الشظايا..
ولك ميعاد مع الموت . .
كان الجسد على بعد خطوتين من يده
تتكاثر حوله وجوه باكية: لاتغادَر..
ابق قليلاً فستحرسك بالدم..
وسنملأ وقتك بحكايا لم نعرفها من قبل

قدم لنا بسيسو دلالة جديدة اتفقت ورؤية النص، حيث أورد لنا اللون الأحمر ضمنياً في الدم، وهو لون مؤثر نفسياً على القارىء؛ لما يحمله هذا اللون من تقاطع حاد بين الدم وألوان المسرة.

ولعل الشاعر حين عبر عن مشهد الشهداء التي تتناثر أشلاؤهم في كل مكان، والدم المتدفق منهم بلونه القاني قد حمّل اللون الأحمر معاني التضحية والعزة في سبيل الوطن، لا الحزن والانكسار.

وفي مشهد آخر حزين يعبر فيه الشاعر صالح فروانه عن حكاية حفيدته مع والدها المبعد، وهي تخاطبه ببراءة الأطفال في "رسالة إلى مبعد" ، فيقول على لسانها: [22]

أبي العزيز
يا زهرتي الغناء في مرج الزهور
لو يقبلون فدية فديتك
كم يقبلون؟
هل يقبلون كل ما خزّنت لي
من لعب حبيبة إليّ
كل حبات دوائي
وطوقي الوردي
وكل ما ادخرت في حصالتي
كم يقبلون؟

لقد رسم الشاعر دلالات جديدة لتلك الألوان المضمرة خلف الإيحاءات الجمالية، الوصفية في قوله: (زهري، مرج الزهور، الطوق الوردي)؛ فالأحمر من الأزهار عادة ما يكون مليئاً بالمشاعر الجياشة التي انتقلت من خلالها الدلالة من التعبير العاطفي الرومانسي إلى الذكريات الجميلة، فهي رمز للماضي الجميل.

فالمقطوعة متمازجة بالألوان الفاتحة، فالزهور المتمثلة في خفة جمال ألوان بهائها في الجو الربيعي الهادئ وطوق الحفيدة الوردي، واجتماع كل ذلك للدلالة على شعاع أو نورس قضية مازالت معجونة في غيمة الضباب غير الواضحة كاللون الوردي الباهت وهي قضية المبعدين.

إن هذا الخليط الممزوج اللوني في المقطوعة الشعرية وإن كان به نبرات حزن إلا أنه يوحي بالدفء الداكن والصبر الرؤوف.

لقد تحول دلالة الأحمر إلى دلالات رمزية جديدة أوحت لنا بالأحلام والأفراح، وشكلت رمزاً للأمل الذي طالما حلمت به هذه الصغيرة.

ولعل مأساة الفلسطيني تزداد يوماً بعد يوم، وهم لا يرون أملاً في الخروج من هذه المعاناة، معاناة الأسر والقتل والتهجير القسري، وهذا ما نجده عند العسولي في تصويره للمعاناة التي يعيشها الأسير الفلسطيني في كل يوم، حيث يقول: [23]

من خلف قضبان الدجى أبصرته
يشكو لهيب الظلم والحرمانِ
وعيونه تحكي إليّ توجعاً
والوجه يلعن قسوة السجانِ
من حوله الجدران طوق خانق
والجند فوق البرج كالغربان
قد بات جل القمر في زنزانة
سوداء لفته كما الأكفان
يجثو عليلاً لا أنيس بقربه
إلا أنين الريح والجيران

لقد ازدحم المشهد الشعري بالدلالة السوداوية التي ارتبطت بالواقع الفلسطيني الحزين، فجاءت الإيحاءات حزينة حملت معاني القهر والظلم ، فنرى الوحدات اللونية (دجى القضبان- الزنزانة- السوداء- الغربان) قد تشابكت مع المعاني المتعددة التي ضمنها الشاعر لها محدثاً تناغماً بين الشكل والمضمون.

ولكن الشاعر لا يستسلم لهذا الواقع المأساوي الحزين، بل ينهض متحدياً قيد السجان معلناً أن الضريبة التي دفعها الفلسطيني في مقابل وطنه غالية، ولكن من أجله تهون كل الصعاب، حيث يقول: [24]

يا درة البلدان يا أرض الفدا
أرض الشموخ وقبلة الأديان
ما دام نور الشمس فينا ساطعاً
سنذيب ليل السُهد والأحزان
ونعيد مجدك في الأعالي شامخاً
والسجن يصبح جنة الرحمن

انتقل الشاعر إلى لوحة لونية جديدة أوحت بانفراجات بعد الدجى وقتامة الزنزانة، حيث نور الشمس والدر الأبيض وجنة الرحمن.

لقد استخدم الشاعر ألفاظاً توحي بالبياض لما في هذا اللون من إيحائية تبعث في النفوس الراحة والطمأنينة والأمل، ولعل في قوله: (جنة الرحمن) قوة هائلة من الترميز وضحها الله عز وجل، وبين أن اللون الأبيض سر من أسرار نعيم الجنة، الذي يضفي معنى دلالياً جديداً على آلاء الله، فيزيد نعيم المؤمنين في الآخرة، حيث يقول الله سبحانه تعالى: ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ (الصافات أية 46)

واستمراراً لمعاناة الشعب الفلسطيني وصموده أمام آلة الحرب الإسرائيلية، نجد " راشيل كورى" أيقونة التضامن مع الشعب الفلسطيني، التي حاولت التصدي لقوات الاحتلال الصهيوني ومنعه من هدم الشجر والحجر؛ لكنها قتلت بطريقة وحشية تحت جرافة عسكرية إسرائيلية، ومن ذلك ما نجده عند العسولي في وصفه لهذه الحالة، حيث يقول: (25)

في ظلمة النقع المسعر رفرفت	حول الهموم وتمتمت بصلاة
عبرت إلى الأحزان تحمل فرحة	وتجود بالتحنان والبسمات
وتحملت وجع الفراق لجنةٍ	وتصبرت بالحب والبركات
هي لم تزل أخت الصباح نضارة	في رقة الريحان والنسمات
راشيل إننا ننحني لبطولة	صنعت هداة في الدنا وبناة
قلب كبير كالفضاء رحابة	ويضيء بالأقمار والنجمات
والله إنك تعتلى هام السنا	والعرب تجثو في دجي الدركات
هذى راشيل فانحبوا بوداعها	واستغفروا من خسة وصفات

رسم العسولي عبر حركة هائلة من الألوان معاني جديدة وظفها من خلال مفرداته اللونية، (ظلمة- النقع-الهموم- الأحزان) جاء فيها تأثير اللون الأسود مهيمناً على النص الشعري، هذا اللون حمل في طياته معاني الياس وانسداد الأفق، إضافة إلى ارتباط السواد هنا بالموت الذي لحق بهذه المرأة، وهي تدافع عن المظلومين من أبناء الشعب الفلسطيني، في الوقت الذي تخاذل العرب عن نصرة إخوانهم في فلسطين.

في مقابل هذه المفردات صورة راشيل (أخت الصباح) بكل ما يوحيه الصباح من نقاء وصفاء وأمل في المستقبل، وهو بهذا يفتح آفاقاً لا محدودة للون الأبيض الذي يقفز إلى

الذهن عبر الإدراك النفسي لا الإدراك البصري المحسوس، فالصباح يتضمن اشتغالاً لونياً عميق الكثافة.

وفي صورة لونية أخرى صور لنا الشاعر سليم النفار جوانب من معاناة الشعب الفلسطيني، ومزجها بألوان الطبيعة، لكن ينتهي من خلالها بأن ينعم الفلسطيني بالأمل والصباح الذي يغير الحياة حيث يقول: [26]

أينعت يا وجع الطريق.
أينعت في ملح الطريق.
في درب غربتنا الطويل.
أينعت يا وجع الطرق.
حلماً يرف على سحاب الأرحوان
أينعت يا جمر التحدي في رحيل الظامئين
ها إنهم جيش من الشوق..
المعرش في الهديل
ينداح في ألق يدافعه الحنين
هذا الصباح لنا..
وإنا سوف نختزل الحريق.
أينعت يا وجع الطريق

لقد تمازجت الألوان عند النفار في لوحاته الفنية، فجاءت المفردات اللونية (الأرجوان-جمر- الصباح-سحاب) التي تبعث على التوتر النفسي والاضطراب الداخلي ، وقد تبعت في بعض ألوانه على التمازج الروحي المنبعث من فردوس مفقود.

فهذه اللوحة الفنية شكلت حالة الفلسطيني الذي يعيش هذه المتناقضات في كل يوم.

ولعل اللون الأرجواني الذي هو بين الأحمر والبنفسجي يدل دلالة قوية على التناقض الفلسطيني الذي أشار إليه ما بين الحلم والواقع؛ لأن الأرجوان قد يكون مرتبطاً بآلام متبقية على جسد مازال نازفاً، وأوجاع حية لم تمت بعد.

وأما اللون الصباحي فغالباً كما عهد عن معظم النقاد- أنه الإشراق والصفاء الذي يبعث في النفس الاستقرار، ولكن في تلك المقطوعة هو الأمل والتفاؤل، فمهما غاب هذا الصباح سيشرق يوماً.

فالألوان جميعاً هنا تمازجت وتفاوتت بين الألم والمعاناة وما بين التفاؤل والاستقرار وما بين التناقض الواقف على سكة حديدية لا يعرف مصيرها بعد.

ويبقى اللون في نظر الشاعر أداة تختزل المسافات، وتحقق الانسجام والتوازن في النص الشعري، حين يرسم الشاعر من خلالها معانيه الباطنة، حيث يقول خضر محجز في قصيدة بعنوان "قصيدة لم تكتمل":[27]

ذهب الذين أحبهم
وبقيت مثل السيف فرداً
فنشرت أشرعتي، وودعُت
القبائل كلها، وبصقت في وجه المراحل،
كل المراحل أينعت في جلدى
البنيّ، في عيني ، في شعري
"المخربش" في تلافيف الدماع
وفي دمي.

استطاع الشاعر في (جلدي البني) أن يبعث في هذا اللون قيمة تشكيلية ودلالية انفتحت على كثير من مفردات النص الشعري، مثل (جلدي- عيني – شعري)، فالجلد البني هو ذلك اللون الفلسطيني الذي تعاقب عليه الاحتلال منذ القدم ومازال كما هو لم يتبدل ولم يتغير.

وهذا يدل على الامتداد الزمني عبر المراحل المختلفة التي حاول فيها الاحتلال جاهداً نزع جلده وسلخه عن وطنه فلسطين، ولكن هيهات لهم ذلك، فستبقى هذه البشرة القمحية خالدة في ذاكرة الأبناء والأجداد.

وقد ناسبت العبارة اللونية (جلدي البني) ما رمى إليه الشاعر من رمزية البقاء والاستمرار، ولعل هذا الأمر عمد إلى توثيقه بالتناص مع أبيات خالدة للشاعر عمرو بن معد يكرب التي تشي بمعنى البقاء والوفاء والصمود، حيث يقول: [28]

"ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا"

على الرغم من طبيعة هدوء اللون البني واستقراره من الناحية البصرية والنفسية، فإن مركباته في الأصل مكونة من ألوان حارة كالأزرق والأحمر والأصفر، وبالتالي فهو لا يولد من بيئة هادئة إلا من بعد رحم المعاناة والتضحيات الكثيرة، لذا جاءت دلالة اللون البني بشكل عام على الاستقرار والتجذر والتأصل الموجود في لاوعي الشاعر، ولكن على مستوى النص الشعري فهو يدل دلالة قوية على الانتماء الوطني أو التأصل العربي، بالإضافة إلى الشعور بالمسؤولية رغم غياب الأمان وحالة الفوضى ونوع من الاشتياق المبطن.

وهذا ما نجده عند الشاعرة صباح القلازين التي تصور الوجه الفلسطيني القمحي المتشبث بأرضه حيث يضحي اللون لديها رمزاً ذا معان متجذرة عميقة، حيث تقول في النافذة التاسعة : [29]

صفير الريح في عينيك أيقظني
وفتّح دون أن أدري شبابيكي
فألمح وجهك القمحي يغزوني
ويغلي الثلج تحت دمي لتحريكي
ولكني أُهدّئ روع أوردتي
وأغلق مرة أخرى شبا بيكي

يعد اللون القمحي أو البرونزي من أكثر الألوان مرونة وتقرباً للشمس؛ نظراً لأنه اللون الذي يمنح قاعدة كبيرة من الخيارات الإنسانية العاطفية المختلفة، تماماً كاختلاف دلالات معانيه، وإن دارت في بوتقة المعني الواحد وهو الجمال العربي الأصيل الذي يشبه سنابل القمع اللامعة تحت إشعاعات الشمس الذهبية، مما يغزو سحر هذا الصفاء القلوب كما غزا نيزك انبهار العيون بها؛ لذا لم يكن لهذا الوجه أي إنذار أو مجرد تلميح لغزوه لجميع المشاعر الإنسانية المختلفة في قلب هذا المحب.

إن للتمازج اللوني دوراً فعالاً في رسم الشعر، فهو أداة أساسية من الأدوات التعبيرية التي يكشف بها الشاعر عن انفعالاته وأحاسيسه، وهذا ما نراه عند الشاعر جمال قعوار بقوله: [30]

اكتب على وجه السماء
ملامح المحبوبة السمراء!
وارسم بحار الشوق في العينين!
وجداول الحزن البعيد
تروع عطر الروضتين
واختر لها لون الصباح
يشوبه بعض الاصفرار!

يساهم اللون في إعطاء النص الشعري قيمة فنية عالية، فاللون الأصفر اختلفت دلالاته في الشعر العربي ما بين الحيوية والنشاط والدفء، وما بين الحقد والغيرة والحسد والضغينة، وقد حملت تلك المقطوعة الشعرية صورة وصفية لاشتياق عميق كعمق جوف البحار، وبالتالي إذا وقفنا عند اللون الأبيض الذي يشوبه الأصفر يجعلنا نضيع ونتيه في طيات انكسار وذبول أمواج هذا البحر من خلال صورة الصباح الذي عادة ما يكون رمزاً لإشراق الأمل والخير ورقي وهدوء الجمال النفسي، واقتران هذا الجمال باصفرار باهت مائل للأبيض جعل الباحثة تدرك أن هناك أبعاداً رمزية لهذا الثنائي اللوني ألا وهو انتهاء ائتلاف الموسم وفقدان الأمل بعد إشراقه، وكأن الشاعر يشبه تلك الصورة اللونية بصورة الميت في كفنه ؛ لأن الميت في معظم الأحيان يكون لونه أصفر مائلاً للبياض .

فدلالة هذا اللون يعادل اللون المرضي والضعف والذبول بعد اللون المشرق باسمرار البشرة وزرقة العينين.

إن الشعراء الفلسطينيين لا ينظرون إلى الألوان نظره سطحية عابرة بل يغوصون في أعماقها، وهذا ما صوره لنا الشاعر عبد الكريم السبعاوي في قوله: [31]

جامحة يا أمي
صهوة هذا المهر الأسود
يسقطني مخضوباً بدماي
ويصهل محموماً
يتمرد
يقرع بسنابكه الفرقد

لكني أتمالك
أتحامل رغم الجرح وأصعد
ثانية أصعد
ثالثة أصعد
حتى أثبت فوق السرج
وأشهر سيفي المغمد
وألوّح
فيصبح الميدان
وعينك تشهد

هذا الشاعر الفلسطيني عبد الكريم السبعاوي يخاطب الوطن الذي أوحى إليه بالدلالة الرمزية وهي الأم، التي تكابد وتعاني في مشقة تربية أبنائها واستقرارهم ، وهو ما يحصل تماماً مع المقاوم الفلسطيني، وبالتالي جاء اللون الأسود هنا ليس مرتبطاً بالجمال العربي كما جاء في الشعر الجاهلي. وليس مرتبطاً باليأس كما جاء في حلبة الانهزام والضعف القاتل بل جاء اللون الأسود هنا إشارة إلى العدو المخبأ وراء مؤامراته وضغائنه، ورغم ذلك إلا أن هناك المخضب بدمائه الحمراء الذي يعاني متمرداً ومقاتلاً أمام سطوة وجحود هذا المحتل، دون تنازل عن المطالبة بحقه في أرض أجداده.

فجاء اللون الأحمر هنا بدلالتين: الأولى، هي المواجهة القوية والمباشرة للعدو، وهو مالم يتخلف عنه السبعاوي في معظم أعماله الأدبية خاصة في مواقف شخصيات رواياته، والدلالة الثانية للون هي مدى إسالة الدماء وإراقتها في مقابل تهاون العرب في إنقاذها ؛ لأن الشاعر هنا يتحدث بصيغة الأنا الجمعية الخاصة بفلسطين خاصة عن شهرة بياض سيفه الذي يدل لونه على الطهارة وشرف السلاح.

لقد استطاع الشاعر الفلسطيني التحكم في توظيفه للألوان الجمالية، وأن يرسم من خلالها صورة فنية يصور من خلالها رؤيته ، وهذا ما نجده حاضراً عند الشاعر خصر محجز، حيث يقول: [32]

والبحر أزرق والموانئ كلها

زرقاء، والألق المعتق أزرق،
والأكسجين محاصر في الشاحنات
الزرق أزرق، والفرات.
النيل أزرق ، لون عينيّ الحقيقة
أزرق، والدم أزرق في عروق
الأخرين على المعابر
"فادخلوها أمنين" وشاهدين
على انتماء دمي لغير أبي وأمي

إن اللون الأزرق حاضر في الساحة الشعرية، ودلالاته مختلفة في تلقيها عند القارئ، فقد يوقع في نفسه الطمأنينة أو الشعور بالمسؤولية أو النفور منها، واللون الأزرق هنا اختلفت دلالاته السياقية، ففي البيت الأول كان الأزرق يشكل الجمال والحيوية والصفاء حيث الطبيعة والتأمل، وإن كان الجو العام يشي بالبرودة والهدوء الغامض؛ لأن في البيت الثاني قد جعل تلك البرودة تتسرب إلى نفس القارئ بأن هناك صراعاً واقعاً بين عدو وصاحب حق، وقد تكون تلك الشاحنات هي شاحنات أجنبية أثارت الخوف في قلوب الناس، حتى أصبح لونهم أزرق، وهذا دلالة من دلالات الصراع مع الموت ومحاولة النجاة وإن كانت فرصه قليلة.

لقد انتقل الأزرق في تلك الأبيات من الدفء للبرودة ليحقق أهدافاً أرادها الشاعر.

لقد استخدم الشاعر الفلسطيني ألواناً غير مباشرة، وظف من خلالها رموزاً ودلالات متنوعة، حملت في جنباتها معاني الصمود والتحدي ، وهذا ما يظهر في قول الغرباوى: [33]

هذه غزةُ يا فتى
والمخبرون يفتشون عيون كل العابرين، عن الفدائي
المطاردِ، والقنابل. يشتمون، يهمهمون.
فهل ستخفي تحت جفنيك قباب القدس، أم تنداح
في الكوفية السمراء والحارات تألفُ أن تسامرك
قليلاً، قبل حكم النار في بعض الرقاب.

تشكل المقطوعة الشعرية وصفاً لصورة شعرية متكاملة، إذ يتحدث الشاعر عن شعب تآمرت عليه كل الدول؛ ولكنه بقي واقفاً كما وقف قلم سيدنا زكريا عليه السلام في النهر الجاري، أليس هذا الشعب الفلسطيني المعاهد على وثيقة النصر دون غيره؟ ومن هنا جاءت دلالة اللون متمثلة بصورة مضمرة وراء ستار العيون وهو اللون الغالب على أبناء تلك الأرض وهو اللون الأسود وما في درجاته، أو قد يكون لون العيون المقاومة المتعددة في تشكل مزايا ظهورها التي لا تعرف تهاوناً أو إذلالاً حتى يصعب على الآخر-المحتل- أن يتعرف عليه، رغم أن تلك العيون غير خفية بدلالات ألوانها عن العدو؛ لأنها ظاهرة للعيان وللعالم أجمع أنها عيون قباب القدس الأبية المتمثلة في الكوكب الذهبي اللامع الذي ما تشرق عليه شمسً إلا وسطعت في عيون من يقترب منها؛ مما يدل على صفائه ومدى قوته رغم كل ما يحدث له، فهو مازال محافظاً على رمز الرمز الفلسطيني المتمثل بكوفيتنا السمراء، وقد يشير هذا اللون الأسود إلى الأصالة المتجذرة في قلوب كل فلسطيني حي.

وهكذا أبدع الشعراء الفلسطينيون في توظيف ألوانهم توظيفاً جمالياً فنيا، أعطت صورهم ومعانيهم جمالاً وبهاءً ، وارتقت بخيالات قارئيهم إلى أبعد مدى، وجعلت شعرهم يحمل أبعاداً نفسية واجتماعية وفنية من خلال الوسيلة اللونية التي كشفت عن دلالات الأشياء داخل نصوصهم الأدبية.

الخاتمة:

يتضح لنا مما سبق أن الشعر الفلسطيني أعطى اهتمامًا بارزًا للألوان ودلالاتها، فقد وظفه الكثير من الشعراء بصورة تفاعلية مع النص، فأضحت سيميائية الألوان في النصوص تترتكز على جملة من الخصائص النفسية المتنوعة عضّدت تلك الإيحائية، وعملت على تشكيل صورة متخيَّلة في ذهن المتلقي، يتلمس ملامحها كلما عاود قراءة النص في كل مرة، وتذهب به بعيدًا إلى عالم ما وراء ألفاظ الألوان التعبيرية.

وقد برزت هذه السيميائية في الشعر الفلسطيني واضحة بعد اتفاقية أوسلو، حيث تشابكت الأحداث وتولدت مستجدات على الساحة ولم تكن حاضرة من قبل، فأضحى التعبير الرمزي سمة الكثير من الشعراء، تفاعلوا مع اللون وتماهوا مع الحدث بصورة متشابكة تقتنص بعضًا من الدلالات المتعلقة باللون؛ لتعكس ما وراءه، ربما تعجز الكلمات والعبارات عن التعبير عنه بالطريقة المألوفة.

ومن الجدير ذكره اقتصار البحث على مجموعة من المقاطع الشعرية لشعراء فلسطينيين، عبروا عن العديد من الأحداث والمواقف التي مرت بها القضية الفلسطينية في تلك الفترة، والتي كانت حالة نابضة بما يعصف بالمنطقة في تلك الآونة، فجاءت سيميائية اللون ذات دلالة موحية ومعبرة عن آلام وآمال أبناء الشعب الفلسطيني المكافح، وأظهرت الأحداث في أوضح أشكالها وأعمق مدلولاتها.

الهوامش:

*** *** ***

(1) شقفة، عطا أحمد، سيكولوجية اللون، 11-02-2010 ، الاطلاع: 20.03.2020، موقع: https://pulpit.alwatanvoice.com/content/print/188944.html

(2) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1995: مادة لون)

(3) ابن سيده، المخصص، دار الفكر، بيروت، د.ت: 103/1

(4) الخوسيكي، زين الدين، معجم الألوان في اللغة والأدب والعلم، مكتبة لبنان، 1992، ص ك

(5) المسعودي، مروج الذهب، ت :محي الدين عبد الحميد ، المكتبة الإسلامية، بيروت، د.ت: 218/1

(6) السابق: 218/1

(7) السابق: 1/ 218- 219

(8) (الزواهرة، ظاهر، اللون ودلالاته في الشعر، الشعر الأردني أنموذجاً، دار الحامد ،عمان، 2008، ص 13

(9) أبو دية، أيوب، العلم والفلسفة الأوربية الحديثة، دار الفارابي، ط1، بيروت، 2009:،ص 109

(10) دياب، محمد، جماليات اللون في القصيدة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985، ص 42

(11) القبسي، حمودي، الألوان وإحساس الجاهلي بها، مجلة أقلام، الجزائر، ج (9)، السنة الخامسة. 1969، ص 80

(12) إبراهيم، عبد الحميد، قاموس الألوان عند العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة. 1989، ص 12

(13) صالح، قاسم، سيكولوجية إدراك اللون والشكل، دار علاء الدين، ط1، دمشق، 2006، ص 5

(14) المقالح، عبد العزيز، إيقاع الأزرق والأحمر في موسيقا القصيدة الجديدة، مجلة المعرفة، سوريا، العدد 283-284، 1985، ص 67

(15) مطر، أميرة، مقدمة في علم الجمال، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت، ص 57

(16) شلق، علي، الفن والجمال، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1982، ص 41

(17) إسماعيل، عز الدين، الشعر العربي المعاصر، دار العودة ودار الثقافة، ط2، بيروت. 1973، ص 129-130

(18) الإسكافي، الخطيب، مبادئ اللغة، تحقيق: عبد المجيد دياب، دار الفضيلة بالقاهرة، د.ت، ص 121

[19] حمدان، أحمد، دلالات الألوان في شعر نزار قباني، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2008، ص 27- 28

[20] بسيسو،، إيهاب، نورس الفضاء الضيق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1،بيروت، 2004، ص 13

[21] السابق، ص 63

[22] فروانة، صالح، 2004: مفردات فلسطينية، اتحاد الكتاب الفلسطينيين ط1، غزة. 2004، ص 43

[23] العسولي، عبد الكريم، الناروالحجر، مكتبة النور، ط1، خانيونس ، فلسطين،2001، ص 67

[24] السابق، ص 72)

[25] العسولي، عبد الكريم،: شقائق النعمان، مكتبة النور، ط1، خانيونس ، فلسطين،2004، ص 39-41

[26] النفار، سليم، تداعيات على شرفة الماء، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، غزة، 1996، ص 75

[27] محجز، خضر، اشتعالات على حافة الأرض، اتحاد الكتاب الفلسطينيين. ط1، غزة، د.ت، ص 87

[28] معد يكرب، عمرو،الديوان، تحقيق: مطاوع الطرابيشي، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1974، ص 66

[29] القلازين، صباح، نوافذ، الاتحاد العام للمراكز الثقافية، ط1،غزة، 2002، ص 24

[30] قعوار، جمال، مواسم الذكرى، مركز الجليل التجاري، الناصرة، 1996، ص 23

[31] السبعاوى، عبد الكريم، زهرة الحبرسوداء، دار النورس، ط1،غزة، 1998، ص32

[32] محجز، اشتعالات على حافة الأرض، ص 88-89

[33] الغرباوي، محمود، رفيق السالمي يسقي غابة البرتقال، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، ط1، غزة، 2000 ، ص45

*** *** ***